

مصائب مصر والشام . برجال العلم وحملة الاقلام

٢ - الشيخ حسن المدور

هو من بيت معروف في بيروت . اشتغل من اول نشأته بطلب العلوم العربية والشرعية ، وصحب الاستاذ الامام ايام هجرته في بيروت وتلقى عنه ، فاستنار عقله ، واشرب حب الاصلاح في قلبه ، ولكنه كان يداري الجامدين ، ويخاف شر المستبدين ، فلهذا لم ينهض بالدعوة الى الاصلاح ، ولم يتم بمظاهرة الظاهرين بها في زمن الاستبداد . على انه كان يدرس ويفيد الطلاب باعتداله ورويته ، وقد رغب الي منذ سنتين ان ارسل اليه ما طبع من (تفسير القرآن الحكيم) ليقرأه درسا في الجامع الكبير ، فلم ادر في ارساله اليه ، فكنت في ذلك مخطئا ، وما كنت اتحسب نفسي من العذر في التأخير كان ضعيفا .

وكان الفقيه كريم الاخلاق ، حسن المعاشرة ، واسع الحلم ، شديد الاحتياط في أموره ، فوجود فقيه مثله في بيروت كان ضروريا ، اذ كان رحمه الله تعالى وسطا بين تشديد الجامدين ، وشذوذ المتساهلين المفرطين ، فهو من الافراد الذين لا تستغني أمتنا الاسلامية في قطر ولا مصر عن واحد أو آحاد منهم في هذا العصر - عصر التحول والاطلاق . وقد كان مسلمو بيروت مستفيدين من هذه المزية من مزايه وان لم يعرفها له الجمهور منهم .

وقد صار في العهد الاخير أمينا للفتوى في بيروت فكان خير عون وظهير لفتيها لهذا العهد صديقنا الشيخ مصطفي نجا . وبسوءنا اننا لا نعرف من ترجمة هذا الصديق شيئا كثيرا نثبتته في ترجمته ، ليكون ذكرا باقيا له ، فنحن نعلم انه كان يفيد طلاب العلم والمستفتين بعلمه وعقله وأدبه . ولا ندري أكتب شيئا من الكتب والرسائل المفيدة ام لا . وقد خسرت بيروت بفقدته خسارة لا عوض لها الآن عنها ، لضعف الاشتغال بالعلوم الدينية فيها ، وهو قد دخل في العقد السادس من عشرات سني عمره ، وكان جيد الصحة فعرض له المرض أياما معدودات انتهت باجله ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة

٣ - الشيخ محيي الدين الخياط

ولد بمدينة صيدا في رجب سنة ١٢٩٢ فكانت وفاته في أواخر السنة القمرية لثمتمة للاربعين : وراينا في بعض جرائد بيروت التي أبنته ان والده من السلالة العلوية ، وانه لرغبته عن التناخر بالانساب لم يكن يعرف عنه كلمة تدل على ذلك ، وان أمه ألبانية الاصل ، وكانت كريمة الخلق ذكية الفؤاد ، فهي التي تولت تربيته

وعينت بتعليمه . وقد تعلم التعليم الابتدائي في مدرسة لجمعية المقاصد الخيرية في بيروت ، وتلقى بعض علوم الأدب والدين عن الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي والشيخ يوسف الاسير البيروتي اللذين اتمت اليهما رئاسة العلوم العربية والشرعية في بيروت . ثم كان جل تخصصه بجده واجتهاده في المطالعة والمراجعة والتعليم ، وعنى بالكتابة المصرية ونظم الشعر فكان في الرعييل الأول من فرسانهما في وطنه . وعلم في بعض المدارس ، وحرر في عدة جرائد ، وألف عدة كتب قرظها المنار في ازمته نشرها ، حتى صار اشهر شبان النهضة الاسلامية في بيروت

لقيته في بيروت قبل هجرتي الى مصر ، فاذا هو شاب يتدفق غيرة على الامة وشعورا بسوء حالها ، وشدة حاجتها الى الاصلاح وتجارة الامم الحية . ولما أنشأت المنار جعلته وكيلا له في بيروت وما يتصل بها ، فقبل ذلك بالارتياح ، وكان معتبطا بالمنار اشد الاغتياب ، على ما كان في ذلك من الخطر والتعرض لاذي الحكومة الحميدية . ولكنه عهد بعد ذلك بتوزيعه وجمع مال اشتراكه لصاحب له من ذوي المطامع الدينية وفاسدي الاخلاق ، ففشتنا به غير متعمد . عدة سنين سأل الله وعفا عنه . كان التقيد صاحب همة عالية ، وحب للاستقلال الفكري والحرية ، وميل شديد للسياسة ، ولو أتيج له ان يعيش في بلاد حرة يعمل مستقل به لظهر من استمداده ما كان كامنا ، واصار من اشهر كتاب العصر المصلحين . ولكنه كان ضعيف الثقة باستقلال نفسه في العمل ، فلم يجزأ على الهجرة ولا على النهوض بعمل مستقل غير مضمون الربح ، ولهذا باع قلمه لاصحاب الجرائد بالاجرة مراعييا مشار بهم ومذاهب سياستهم فيها ، فكان لا يؤلف كتابا الا بعد ان يتعاقد مع رجل يطبعه على نفقته ، ويكون ملكا لطابعه من دونه ، وكان الباعث له على ذلك الحاجة الى المال ، وحب التعجل بربح قطعي بلا ثقة ولا انتظار ، وكان من لوازم هذه الطريقة من الكسب بالقلم اختيار ما يروج عند الطابعين وسرعة التأليف ، فالوقوف به عند حد . في استطاعة المؤلف ما هو أعلى منه . ولولاها لم يحصر جل ما كتبه في كتب التعليم الابتدائي ، فانه لم يؤلف الا كتب دروس التاريخ الاسلامي والعربية والفقه والمطالعة للمدارس الابتدائية . وعاق على ديواني ابي تمام وابن المعز تفسيراً لعرينهما سلك فيه مسلك الاختصار الخلل ، واوقعه الاستمجال في كثير من الغلط ، على أنه كان من أحرص كتاب العصر على ضبط اللفظة وصحة العبارة ، والثقة بما يضبطه بدقة المراجعة . فكان يضاهي الشيخ ابراهيم اليازجي في هذا . وكان يعرف اللغة التركية ، وترجم عنها قصة (الوطن) لناق كال بك الشهير . وكان يرجى من خدمته للغة العربية ما هو اعظم من ذلك ، ولكن كان من سوء حظ الامة العربية ان فقدته عند ما بلغ اشده واستوى ، وقوي في اتقان خدمة الامل والرجاء . عرضت له حمي وهو في عنفوان

قوة ، ققضت في اسبوع واحد على حياته ، فحسرت بفقده الامة العربية قلما سيلا ، وذهنا جوالا ، وهمة لا تعرف ملالا ولا كلالا .

٤ - الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

هو علامة الشام ، وناصرة الايام ، واجدد لعلوم الاسلام ، يحي السنة بالعمل والتعلم ، والتهديب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف ، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن ، الفقيه الاصولي ، المفسر المحدث ، الاديب المثقف ، التقى الابواب ، الحلیم الاواء ، العفيف النزیه ، صاحب التصانيف الممتعة ، والاجتات المقتنة ، صديقنا الصفي ، وخلصنا الوفي ، واخونا الروحي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، واحسن عزاءنا عنه .

نشأ الفقيه في بيت من بيوت العلم والدين في دمشق الشام ، ولد سنة ثلاث وعشرين ومئتين والف . وتلقى مبادئ العلوم العربية والشرعية عن والده الشيخ سميد بن الشيخ قاسم الملقب بالخلّاق . والقاسمي نسبة الى الشيخ قاسم هذا . والديه علوية يتصل نسبها بنسب الشيخ ابراهيم الدسوقي الشهير . وقد عني الفقيه في آخر عمره بإثبات هذا النسب ، وكتب له شجرة ، وجاء مصر في العام الماضي لشؤون تتعلق بذلك . فسررنا بلقائه ، وجددنا ما لا تخلقه الايام من عهود إخوانه . وكتبنا له كما أحب كلمات على نسبه . وقد صار بعض تلاميذه واصحابه يطلقون عليه لقب « السيد » بعد تحرير هذا النسب ، بناء على القول بعموم شرف الاسباط . ولكن العرف الذي عليه أكثر المسلمين على خلاف هذا القول . والكثيرون من أهل سورية يطلقون لقب « السيد » على من ليس له لقب علمي ولا رسمي ، ولعل ذلك من نزغات الامويين ، في هضم حقوق العلويين . والشيخ غني عن هذا اللقب ، الذي لا يفهم المراد منه أحد .

وقد تلقى العلوم المتداولة في الشام عن الشيخ بكري المطار اشهر علمائها وفقهاء الشافعية فيها ، وكان يحضر مجالس الاستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام ، وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه واخلاقه المرضية ، ما لم يستفده من غيره . وصحب الاستاذ المعنّ المفقن الشيخ طاهراً الجزائري ، فاستفاد من صحبته علما بحال العصر ، ومعرفة بنوادير الكتب وغرائب المسائل ، وصحب العالم المستقل الشيخ سليم البخاري ، وأترايا من خيرة شبان العصر المدينين كرفيق بك العظم ومحمد افندي كردعلي وغيرها وجماعتهم . فكان لهجة هؤلاء الشيوخ والشبان ، وهم خير من ابنت الشام في هذا الزمان ، تأثير عظيم في حياته العلمية ، من حيث فتحت لاستعداده الفطري ، واستقلاله الوهبي ، ابواب البحث والتحقيق ،

وعدم الوقوف عند المسلمات من التقاليد ، ونبهته الى حاجة الامة الى الاصلاح المدني كحاجتها الى الاصلاح الديني . وجاء مصر مع الاستاذ البيطار ، على عهد الاستاذ الامام ، فاعتبطا بلقائهم واعتبط بلقائهم ، وصارت المكاتبة بمذالك متصلة بينه وبينهما وإنما كان جمال الدين ذلك الرجل بجوهر نفسه ، وقوة استعداده ، وكم من طالب علم سمع مثل ما سمع ، ولقي من الشيوخ والشبان مثل من لقي ، فأنكر كل ما خالف - وعلى كل من خالف - ما عرف وألف . ولم يهده ذلك الى طلب علم جديد ، ولا الى مراجعة النظر واستشارة الدليل . فالتقى ان الافراد الذين امتازوا في هذا العصر من أمتنا بالعلم الصحيح والتصدي للاصلاح ، انما امتازوا اولاً بقوة الاستعداد ، والميل الفطري الى الاستقلال ، ثم سلوك النظر والاستدلال ، فن كان هكذا فقه لقاء اهل الاختصاص ، والاطلاع على احاسن الكتب والاسفار ، فيكون في ذلك كالنحلة في الروض ، تجني من تضر الازهار ويانع الثمار اطيب ما فيها .

رغبت بعض المدرسين ، في قراءة كتاب احياء علوم الدين ، فقلب اوراقه كلها او بعضها ، فلم يقع اختياره على شيء يقرأه منها ، الا بعض حكايات الصالحين ، وبعض الآثار في فضائل الاعمال . فهو لم يستفد من علم الغزالي مسألة ما ، ولم يتقل من خصائص الكتاب شيئاً . ذلك بان هم ذلك المدرس كان محصوراً فيما رأى عليه أمثاله ، وهو انتقاء ما يرضي الناس ويثبثهم ، ولا يذكرهم بشيء من جهلهم ، ولا يكشف لهم الستار عن شيء من عيوبهم ، ولا ينذرهم سوء اقامة افراطهم وتفریطهم . نعم ان كل فرد من أولئك الافراد القلائل الذين نعدم في هذا العصر من المصلحين - وصديقتنا المترجم منهم - لم يكن امتيازهم الا بصفاء جوهرهم وقوة استعدادهم الفطري للاستقلال والكمال . مع التوفيق للطلب والاشتغال ، واتفاق لقاء بعض أصحاب المزايا من الرجال ، ذلك بأنه ليس في أمتنا مربيون ، ولا معلمون مصلحون ، لا في البيوت ولا في المدارس ، ولو وجد فينا كثير من القادرين على التربية الصحيحة والتعليم الاستقلالي ، لوجد في كل بلد - لافي كل قطر فقط - كثير من أمثال القاسمي .

ظهر الشيخ جمال الدين في الشام على حين فترة من العلماء ، فقد كانت من ادرك من كبار شيوخها آخر الذين عنوا بدراسة الكتب الممهودة التي يطلق على مدارسها لقب (علماء) على ان العلم الصحيح - وهو العلم الاستقلالي المبني على الدليل - كان قد حجر عليه وحكم بنحره من عدة قرون ، فلم يكن أحد يشم ريحه ولا يشم وميضه الا قليلاً ، وصار الناس كالحفايش لا يفتحون في هذا النور عينا ، ولا يجيلون في شعاعه فكراً . . ظهر الفقيه وفي دمشق الشام أفراد ورتوا عن آبائهم واجدادهم عمائم العلماء والقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من اوقاف المسلمين

ولم يروا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئا . فاتهم العلم ولم يقفهم صرف الاوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده ، تبعا للتمتع بالقابله وأزيائه ونقده ، فكان من اكبر الخطوب عليهم ان يروا في الشام عالما يتصدى للتدريس والتصنيف ، وبين حاجة البلاد الى الاصلاح والتجديد . فاذا تصدى لذلك أحد يكيدون له المكائد ، وينصبون له الحبال ، ويفخونه الفتنة ، ويجعلونه في موقف الغلظة ، فيسعون به الى الحكم ، انصار كل متافق ، ويهيجون عليه العوام ، اتباع كل ناعق . فاذا يعمل العالم المصلح بينهم ؟

اذا كان عمل القاسمي للاصلاح وتجديد علوم الدين صغيرا في نفسه ، فهو كبير جدا في بلاده وبين قومه ، فا القول فيه اذا كان عمله كبيرا في الواقع ، وقد عظم المطلوب وقل المساعد ؟

كان رحمه الله تعالى يقرأ الدروس العربية والشرعية للطلبة وللعامه ، ويخطب في المسجد خطبة الجمعة ، ويصنف الرسائل والأسفار الممتعة ، ويصحح ما يرى نشره نافعا من كتب المتقدمين ، ويشرح المختصر ويختصر المطول منها ، ويسمى في طبها ونشرها ، ويمتد روح الاستقلال والاستدلال في ذلك كله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة التي هي احسن . وكم سعى فيه وكاد له أولئك المعتمون الجامدون فأنجاه الله منهم ، وان اكبر الكبائر التي يتهمون بها كل من يدعو مثله الى العلم والعمل بكتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، هي محاولة هدم الدين بفتح باب الاجتهاد والاستدلال ، وما يستلزمه ذلك بزعمهم من تحفير الأئمة ، ومن اتبعهم من علماء الأمة !! وقد آتهم مرة بذلك مع بعض اصدقائه وعقد لهم مجلس في المحكمة الشرعية وسألهم القاضي عن تلك التهمة ، واخذ الفقيه من دونهم الى دار الشرطة ، وحبس فيها بضع ساعات .

كان له رحمه الله تعالى دروع سابغات من اخلاقه وسيرته ، تقيه بغي أعداء العلم والاصلاح من حساده ، اذ كان نزه اللسان ، بعيدا عن المراء والجدال ، مستجنا للآراء بغيره ، والتمريض بتميزة خصمه او مدح نفسه ، غير مزاحم لوارثي السمائم على الخطام ، ولا مسابق لهم الى ابواب الحكم ، - الى ما كان عليه من العبادة ، والعفة والاستقامة .

(للترجمة بقية)